مجلة كليّة
الدعوة الإسلامية
عشر
مجلّة إسلاميّة - ثقافيّة - جامعة - محكمة تصدر سنويًا
1424 من ميلاد الرسول ﷺ 1995 أفرنجي

إختتام النّبوّة

ظاهرة الشّعراء الكُتّاب في ليبيا

مالم يُذع من المصطلحات النحويّة

مجمل لتاريخ الكنيسة

كتب التراجم

وأهميتها للباحث في تاريخ الأندلس الاقتصادي والاجتماعي (*)

د. أمين توفيق الطيبي
الكلية الإسلامية - لندن

إن الباحثَ في تاريخ الأندلس يتوفَّر له عددٌ من المصادر العربية الأولية من بينها - من القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي - كتابُ (افتتاح الأندلس) لابن القوطية، وكتابُ (أخبار مجموعة) لمؤلفٍ مجهول الاسم، وما وصَلَنا من كتابيْ (المقتبَس و (المَتين) لابن حيَّان القرطبي (ت سنة 469/ 1076)، و (البيان المُغرب) لابن عِذاري المراكُشي (كتب في حدود 712/ 1312)، وكتاب (أعمال الأعلام) الذي يمكن اعتباره - بحق - خيرَ مدخلٍ لتاريخ الأندلس بقلم مؤرخٍ أندلسٍ من الفتح إلى عهد ابن الخطيب، المتوفى سنة 776/ 1374، إلا أن هذه المصادر التاريخية تتناول - في المقام الأول - الجوانبَ

(*) مجمل محاضرة ألقيت بالإنجليزية في مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية في 17/ 5/ 1995.

السياسيةَ من تاريخ الأندلس دون أحوال البلاد الاجتماعية والاقتصادية، إلا في ما ندَر من إشارات عابرة، كما يفعل ابنُ حيّان عند سرده لأحداث سنة 330/ 942 حيث يذكر وصول تجار من مدينة أمالفي (Amalfi) بجنوب إيطاليا إلى قرطبة لأول مرة فيقول: «كان احتلالُ تجار الملفيِّين بقرطبة، أتوا إلى الأندلس في البحر لطلب التجارة فيها بما عندهم من الأمتعة، ولم يُعلَمْ لهم قبل أيام الناصر لدين الله دخول... من جهة البر ولا من جهة البحر، جاؤوا بغريب ما في بلدهم من رفيع الديباج... وغير ذلك من نفيس المتاع... فأحمد القوم صفقتهم... واتّصل اختلافهُم إلى الأندلس فيما بعد، وعظمتْ المنفعة بهم»[1].

وبعد الحديث عن فحص غرناطة ووفرة غلاته، يمضي ابنُ الخطيب إلى الحديث عن مجتمع أهل بلده غرناطة فيقول إن «ألسنتَهم فصيحة عربية... وتغلبُ عليهم الإمالة... وأنسابهم عربية... والعمائم تقلُّ في زيِّ أهل الحضرة... وصَرْفهم فضة خالصة وذهب إبريز طيب»[2].

أما ما وصَلَنا من مصادرَ جُغرافية فتشتمل على معلومات ضافية عن ثروات الأندلس المعدنية والزراعية وصناعاتها. وأهم هذه المصادر كتاب (ترصيع الأخبار) للعُذْري، وقطعةٌ من كتاب (المسالك والممالك) للبكري، وكلاهما من رجال القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، وكتابُ (نزهة المُشتاق) للإدريسي (منتصف القرن السادس/ الثاني عشر).

إن كتابَ (تقويم قرطبة) الذي صنَّفه عام 350/ 961 غريبُ بن مسعد، كاتبُ الخليفة الحكم المستنصر، هو أول كتاب أندلسي يشتمل على معلومات فلاحية وخيرة، إذ يورد المؤلفُ في نهاية تقويم كل شهرٍ نشاطاتِ المزارعين من حراثة وبذرٍ، وغرس أشجار، وتقليمٍ وتركيبٍ وحصادٍ وجَنْي ثمارٍ وأزهار.

---

(1) ابن حيان، أبو مروان حيان: المقتبس في تاريخ الأندلس، الجزء الخامس، مدريد 1979، ص 478.

(2) ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة، المجلد الأول، القاهرة 1955، ص 134، 137.

كما أن كتبَ الحسبة الأندلسية مصدرٌ مهم للمعلومات عن الحياة الاقتصادية والاجتماعية إذ إن مُصنفيها كانوا في الغالب قضاةً أو محتسبين تولّوا الإشراف على الأسواق والأخلاق العامة.

كتبُ التراجم الأندلسية

أولى الأندلسيون اهتماماً وعنايةً كبيرين للتصنيف في مجال معاجم التراجم (Biographecal dictionries)، ولعلّهم سبقوا - بل وبَزُّوا - المشارقة في هذا المجال. فأول كتب التراجم الأندلسية - (قضاة قرطبة) للخشَني - ظهر في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، بينما ظهر كتابُ (وفيات الأعيان) لابن خَلّكان في أواخر القرن السابع/ الثالث عشر. إن بعض كتب التراجم الأندلسية تتناول طبقةً معيّنةً من الرجال، وكتاب الخشني مثلاً يتحدث عن قضاة قرطبة من افتتاح الأندلس إلى عام 357/ 968، ويتناول البعض الآخر من كتب التراجم الأعلامَ عامةً من فقهاء وأدباء، كما هو الحال بالنسبة لكتاب ابن الفَرَضي(تاريخ علماء الأندلس)، وهو الرائد لهذا الصنف من كتب التراجم.

وتتوخى هذه الدراسةُ التنويه بما ورد في عدد من أمهات كتب التراجم الأندلسية من إشارات ومعلومات عن الأمور الاقتصادية والاجتماعية على مدى خمسة قرون، أي من افتتاح الأندلس سنة 92/ 711 إلى أواخر القرن السابع/ الثالث عشر، وهي معلومات لا ترِدُ في كتب التاريخ والجغرافيا العامة، ولذلك فإنها مكملة لها. وتضمُّ كتبُ التراجم الواردُ ذكرُها في الدراسة ثمانية عشر مجلداً تغطي فترات الأمويين وأمراء الطوائف والمرابطين والموحدين من تاريخ الأندلس.

إن كتابَ (قضاة قرطبة) للخُشَني بما يحتويه من حكايات وفوائد من أهم ما يُرجع إليه لدراسة المجتمع الأندلسي من الفتح إلى منتصف القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي. وفيه أن الأعجمية (Romance) - لغة السكان الأصليين كانت متداولةً حتى بين القضاة، وأن المساجد كان يجلس فيها القضاةُ للحكم والمؤدبون للتدريس. وإذا كان كتابُ الخُشني يفتقر إلى روح

النقد، فإنه مع ذلك لا يُغفل إيرادَ معلوماتٍ تكون أحياناً في غير صالح الأمويين[3].

وكما تقدم، فإن ابن الفَرضي (ت 403/ 1013) كان رائدَ أصحاب معاجم التراجم العامة في الأندلس. فكتابه (تاريخ علماء الأندلس) ـ ويتميَّز بوفرة معلوماته ودقتها ـ كان مَثَلاً احتذى حذوه من جاء بعده من أصحاب كتب التراجم، فوصلوا كتابه أو ذيَّلوا له. وستتطرَّق الدراسةُ إلى ما أورده ابن الفَرضي عن أعلام الأندلسيين الذين زاروا المشرق للحج وطلب العلم أو مزاولة التجارة، وقد انتهى المكان ببعضهم إلى ساحل إفريقيا الشرقي والهند والصين.

أما كتابُ (الصلَة) لابن بَشْكُوال (ت 578/ 1183) ـ وهو صلةٌ لكتاب ابن الفرضي ـ فهو غنيٌّ بالمعلومات التاريخية والأدبية، وبأسماء العديد من المدن والمواضع بالأندلس[4]. ويتحدث ابنُ بشكوال عن التدريس في المساجد، وعن وصول العديد من المشارقة إلى الأندلس ـ وفي مطلع القرن الخامس/ الحادي عشر على وجه الخصوص ـ وعن مساهمة الزهاد والفقهاء في الجهاد، وفي محاربة التلاعبِ والغشِ في العُملات المتداولة.

وصنَّف ابنُ الأبّار البَلَنسي (ت 658/ 1260) كتاب (تكملة الصلة)، وفيه ذيَّل لكتاب (الصلة) لابن بشكوال، ويتحدَّث ابن الأبار في مُعجمه عن القضاة والشيوخ، كما يتحدَّث عن رحلات الأندلسيين إلى المشرق وإيثارهم الاستقرارَ في بلاد الشام.

وابن عبد الملك المراكُشي (ت 703/ 1304) صاحبُ (الذيل والتكملة لكتابيْ الموصول والصلة)، وهو صلةٌ أو تكملةٌ لكتابيْ ابن الفَرَضي وابن بشكوال. والكتاب، وقد صدر منه إلى الآن ثمانيةُ أجزاء، لا غِنىً عنه بالنسبة لأعلام المغرب الإسلامي. ومعظمُ التراجم في الكتاب لفقهاء وأدباء أندلسيين

(3) دائرة المعارف الإسلامية (الطبعة الثانية، بالإنجليزية)، المجلد الخامس، ليدن 1986، ص 71.

(4) المرجع السابق، المجلد الثالث، ليدن ـ لندن 1971، ص 733.

من القرن السابع/ الثالث عشر. والكتابُ من المصادر التي اعتمد عليها ابنُ الخطيب وابنُ القاضي والحسن الوزان (ليون الإفريقي)[5]. ويرى الأستاذ الباحث محمد بن شريفة أن ابنَ عبد الملك المراكشي «إمامُ المؤرخين بالمغرب في زمنه، ويمكن القولُ على العموم بأن «الذَّيْلكات»، التاريخية التي اشتمل عليها كتابُه تعدُّ أوثقَ ما يُعتمد عليه في تاريخ الموحدين وأصحَّ نصوصِ هذا التاريخ»[6].

أشار ابنُ عبد الملك المراكشي إلى نوعٍ من الاستثمار المشروع المعروف باسم «القِراض» (Commenda)، كما تحدَّث عن الآثار التي ترتَّبتْ عن فيضان نهر الوادي الكبير عام 597/ 1201، وترجم ابنُ عبد الملك المراكشي لنحوي أندلسي تولّى تدريسَ العربية في شرق إفريقيا، ولتاجر أندلسي بلغ بلاد الصين، كما تحدَّث عن اختيار السلطان صلاح الدين الأيوبي فقيهاً أندلسياً ليكون أول إمام وخطيب قارٍ للمسجد الأقصى ببيت المقدس عقب تحرير المدينة المقدسة من أيدي الصليبيين (583/ 1187).

أما المحدِّثُ الغرناطيُّ ابنُ الزبير (ت 708/ 1308) فلم يصلْنا غيرُ جزأين من معجمه (صلة الصلة)، الذي ذيَّل فيه لكتاب (الصلة) لابن بشكوال. ويشتمل الكتابُ على معلومات تدل على حرص الأندلسيين على زيارة مدينة بيت المقدس والتدريس والإقامة فيها. ويُستفاد من ترجمة ابن ثوبة، قاضي غرناطة في منتصف القرن الخامس/ الحادي عشر، بأن القنطرة المعروفة باسم قنطرة الوادي على نهر حَدرُه (Darro) في غرناطة إنما سُمِّيت كذلك نسبةً إلى القاضي ابن ثوبة الذي أنشأها، كما أنشأ المسجدَ المجاور لها.

إشارات اقتصادية:

يترجم ابنُ عبد الملك المراكشي لعالمٍ دمشقيٍ استقرَّ في غرناطة وفيها

---

(5) نفسه، ص 675.

(6) ابن عبد الملك المراكشي، محمد: الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، السفر الثامن، القسم الأول، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، 1984، ص 82.

كانت وفاته سنة 608/ 1211، فيقول إنه «كانت له دراهمُ من مكسبٍ طيب وأصلٍ حلال، وكان قد دفعها إلى ثقةٍ من إخوانه ليتجر له بها على حكم القراض، فيتقوتُ بما يفيء اللّه عليه من ربحها»[7]. إن نظامَ القراض المشار إليه ـ وكان مألوفاً في تجارة القوافل عبر الصحراء ـ انتقل إلى الجمهوريات البحرية الإيطالية في القرون الوسطى حيثُ عُرف باسم (Commenda).[8]

ويترجم ابنُ بشكوال لفقيهٍ صالحٍ من أهل طليطلة من أوائل القرن الخامس/ الحادي عشر فيقول إنه «كان يبايع الناس، إذا ابتاع أعطى دراهم طيبة... وإذا بايع اشترط مثل ذلك. وإذا خُدع فيها ورُدَّتْ عليه، صرَّها في خِرْقةٍ ثم واسَطَ بها القنطرة وألقاها في غدير الوادي [وادي تاجه] ويقول: هي أفضلُ من الصدقة بمثلها لو أنها طيبةٌ لقطع الرديُّ والغش من أيدي المسلمين»[9].

عُرف نظامُ الحسبة في الأندلس بولاية السوق. يترجم ابنُ بشكوال لابن مشّاط الرعَيني الذي ولاّه المنصورُ محمد بن أبي عامر الحسبةَ فيقول إن الحسبة «تُعرف عندنا في الأندلس باسم ولاية السوق»[10].

وينفرد ابنُ عبد الملك المراكشي بذكر أخبار المجاعة الكبيرة التي حدثتْ في إشبيلية في عهد المعتضد بن عباد عام 448/ 1056، وكان من جرّائها أن الموتى كانوا يُدفنون كل ثلاثة أو أربعة في قبر واحد، وأغلقت المساجد إذ لم يكن ثمة أئمة أو مُصلُّون[11].

ويورد المراكشي رواية مشاهد عيان عن السيل الكبير بأشبيلية في ربيع

---

(7) نفسه، السفر الثامن، القسم الأول، ص 411.

(8) دائرة المعارف الإسلامية (الطبعة الثانية، بالإنجليزية)، المجلد الخامس، ليدن 1980، ص 9 ـ 10.

(9) ابن بشكوال، خلف: كتاب الصلة، القاهرة 1955، ص 7 ـ 258.

(10) نفسه، ص 296.

(11) ابن عبد الملك المراكشي، 5/ 1، ص 33.

عام 597/ 1201 والذي دام ثلاثة أيام ووقع في سورِ المدينة الذي كان قد استحدثه الأمير عبد الرحمن الثاني (الأوسط) إثر غارات المجوس على إشبيلية عام 229/ 844، فيقول: «وكان هذا السيلُ من أكبر السيول وأشدّها أثراً... ولو كان هذا الحادثُ بالليل، لَهلكَ فيه آلافٌ من الناس... ولم يكن أحدٌ من المعدين يُعدّي إلا في القوارب القرطبية لعظم الماء وجفائه... وصارت إشبيلية ما بين المياه كأنها جزيرة...»[12]. إن أخبارَ هذا السيل المدمِّر لم ترد في أي من المصادر التي وصلتْنا من تلك الفترة.

يشتهر المسجدُ الجامعُ بقرطبة بأشجار النارنج المغروسة في الساحة المؤدية إلى المسجد. وهذا التقليد انتقل إلى بقية المساجد في الأندلس وإلى بعض المساجد التي شيَّدها النازحون الأندلسيون في سائر بلدان المغرب، وفي الترجمة الوجيزة لصَعْصَعة بن سلام الشامي، يذكر ابن الفرضي أن صعصعة كان مُفتياً أمام الأمير عبد الرحمن الداخل وصدراً من أيام ابن هشام «وفي أيامه غُرست الشجرُ في المسجد الجامع» حسب مذهب الأوزاعي والشاميِّين[13]، وكان مذهبُ إمام الشام عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي (ت 157/ 774) المذهبَ السائدَ في الأندلس في القرن الثاني/ الثامن إلى عهد أمير الأندلس الثاني هشام بن عبد الرحمن (حَكَم 172 ـ 180هـ/ 788 ـ 796م)، وهو الذي اتخذ مذهبَ الإمام مالك مذهباً رسمياً للأندلس.

وفود المشارقة إلى الأندلس:

يورد ابن بشكوال أسماءَ عشرات من المشارقة الذين قدموا إلى الأندلس للتجارة أو التدريس، من بينهم دمياطيٌّ «كان مُقرئاً وأستاذاً للعربية»، ووصل آخرون من تبريز وشيراز وخراسان وبغداد والبصرة ودمشق ومصر. ومن الملاحظ أن معظم هؤلاء الوافدين قدموا إلى الأندلس في أوائل القرن الخامس/ الحادي عشر، أي في أواخر أيام الخلافة الأموية بقرطبة وبداية فترة

(12) نفسه، 5/2، ص 659 ـ 660.

(13) ابن الفرضي، عبد الله: تاريخ علماء الأندلس، جزءان، القاهرة 1966، 1/ ص 203.

سلوك الطوائف. ولعلَّ تدفق هذا العدد من المشارقة كان نتيجةً للقلاقل والمجاعات في الشرق، أو لما كانت عليه الأندلس من رخاء آنذاك، أو للسببين معاً.

الأندلسيون في المشرق:

كان الكثيرون من الأندلسيين يتوجهون إلى المشرق لتأدية فريضة الحج، وطلب العلم، وللتجارة والاستقرار. ويبدو أنهم كان يؤثرون الإقامة في بلاد الشام لميولهم لبني أمية الذين قَدِموا من دمشق، ولأن جند الشام الذين قدموا في طالعة بَلْج بن بشر القُشَيْري (123هـ/ 741م) كانوا قد استقروا في إشبيلية وغرناطة ومالقة ومدينة شذونة. فقد استقر فقيهٌ أندلسيٌّ في دمشق حيث ولي عام 395/ 1005 خطة الحسبة[14]. وأدى محدِّثٌ إشبيليٌّ فريضة الحج ثم استقر في دمشق، وكان الزائرون الأندلسيون لدمشق يلقون منه كل مساعدة[15]. ويذكر ابن الأبار أندلسياً حجَّ ثم استقر في مدينة حلب حيث «سُلِّمتْ إليه خزانةُ الكتب النوريَّة، وأُجريتْ عليه جراية»، وكانت وفاته في حلب سنة 563/ 1168[16].

وقد حَرِص الأندلسيون على زيارة بيت المقدس والتدريس والإقامة في المدينة المقدسة. يذكر ابنُ الزبير المُقرىءَ أبا الحسن علي بن أحمد الكناني فيقول إنه رحَل إلى المشرق، فحجَّ «وأقام بالقدس تسعة أشهر يعلِّم القرآن»[17].

إن الفقيه المالقيَّ أبا الحسن علي بن محمد المعافري حجَّ ثم عرَّج على دمشق حيث حظي ـ لعلمه ومتانة دينه ـ بسمعة طيبة. ولما استرد صلاحُ الدين الأيوبي بيتَ المقدس من أيدي الصليبيين (583/ 1187) رغب في تنصيب إمام

(14) ابن الأبار، محمد: التكملة لكتاب الصلة، القاهرة 5 ـ 1956، ص 133.

(15) نفسه، ص 643.

(16) نفسه، ص 501.

(17) ابن الزبير، أحمد: صلة الصلة (القسم الأخير)، الرباط 1937، ص 103.

للمسجد الأقصى «فأجمع من حضر [في مجلسه] من العلماء والأفاضل المشار إليهم على أنه لا أحقَّ من أبي الحسن هذا بذلك المنصب... فقدَّمه لذلك... ووقَفَ عليه داراً وأرضاً وبستاناً. وقد عُرف أبو الحسن في بيت المقدس بالحاج المالقي، وكانت وفاته في القدس سنة 605/ 1208، «وكانت جنازته مشهودة لم يتذلَّف عنها كبيرُ أحد، حتى إن النصارى الذين كانوا بالكنيسة هنالك اتبعوا جنازته ورَموْا بعض ثيابهم على نعشه، وأخذ بعضهم يناول بعضاً إياها، ويمسحون بها على وجوههم تبركاً به»[18].

أندلسيون يصلون إلى شرق إفريقيا والهند والصين:

زار أندلسي من جزيرة ميورقة ـ أبو الحسن علي الأنصاري ـ دمشق والبصرة وعُمان طلباً للعلم، واشتهر محدِّثاً وعالماً باللغة العربية. ومن عُمان توجَّه الأنصاري بحراً إلى بلاد الزنْج (شرق إفريقيا) حيث زاول تدريسَ اللغة العربية، ولاحظ حرصَ الأهالي على دراسة نحو اللغة، ويُنقل عن الأنصاري قولُه: «لو أردتُ اكتسابَ آلاف الدنانير من التدريس هناك لتيسَّر لي ذلك. وقد حصلتُ على نحو ألف دينار، وأسِفَ القومُ لفراقي لهم»، وكانت وفاته في العراق سنة 477/ 1085[19].

وعن رحلات بعض الأندلسيين إلى المشرق للتجارة وطلب العلم يذكر ابنُ الفرضي محمد بن معاوية، المعروف بابن الأحمر، وكان ينتسب للأمويين، فيقول إنه رحل إلى المشرق سنة 295هـ، فسمع بمصر وبمكة وبالكوفة وبالبصرة، ودخل أرض الهند تاجراً، وكان يقول: «خرجتُ من أرض الهند وأنا أقدر أن معي قيمة ثلاثين ألف دينار، فلما قاربتُ أرض الإسلام غرقت، فما نجوتُ إلا سبحاً، لا شيء معي»[20].

---

(18) ابن عبد الملك المراكشي، 5/ 1، ص 5 ـ 316.

(19) نفسه، ص 4 ـ 165.

علي بن محمد المعافري: الحدائق الغناء في أخبار النساء، تحقيق عائدة الطيبي، الدار العربية للكتاب 1978، ص 103 ـ 104.

(20) ابن الفرضي، 2/ ص 67 ـ 68.

وسافر أندلسيٌ من مدينة بلنسية «الكثير براً وبحراً، واخترق من الأندلس إلى بلاد الصين، واستوطن مكة». وكانت وفاته ببغداد سنة 541/ 1146[21].

فقهاء مرابطون مجاهدون:

تَرِدُ ترجماتٌ لعديد من الفقهاء والزهاد الذين أقاموا في رباطات في مناطق الثغور يجمعون بين العبادة والجهاد. فهذا فقيه طُلَيْطُليٌ ذُكر أنه ذهَبَ ماله وانتقل إلى الثغور وتوفي مرابطاً في حصن غرماج (Gormaz) في أرض ليون، وكان النصارى في الجهة يزورون ضريحه تبركاً[22].

ويترجمُ الضَّبِّي لفقيهٍ زاهدٍ مجاهدٍ هو أبو عبد اللّه محمد بن طاهر القيسي من مدينة مُريسة بشرق الأندلس، حجَّ وأقام بعضَ الوقت في بيت المقدس ثم عاد إلى الأندلس، وكانت له بمرية جنينةٌ يعمرها بيده ويقتات مما يتخذه فيها من البقل والثمر. وكان لا يدع خلال ذلك الجهادَ مع محمد بن أبي عامر (المنصور). وشهد من فتحَ سمُورة (Zamora) وفتحَ مدينة قُلُمْرِيَّة (Coimbra) من قواعد جليقية (Galicia). ثم ترك سكنى قرية ورحل إلى الثغر وواصل الرباط، ولم يزل مرابطاً بطَلبيرة (Talavera) ـ قرب طليطلة ـ إلى أن استشهد مُقبلاً غير مدبر[23].

ويترجم ابن الزبير لزاهدٍ من مالقة ـ يوسف بن محمد البلوني ـ فيقول إنه بنى في مسقط رأسه مالقة بماله الخاص 25 مسجداً، وشارك في عدة حملات جهَّزها كل من السلطان المنصور الموحدي في الأندلس، والسلطان صلاح الدين الأيوبي في بلاد الشام. وكانت وفاته في سنة 604/ 7 ـ 1208[24].

---

(21) ابن عبد الملك المراكشي، 4/ ص 16، 18.

(22) ابن بشكوال، 96.

(23) الضبي، أحمد: بغية الملتمس...، مدريد 1885، ص 73.

(24) ابن الزبير، ص 7 ـ 218.

الأعجمية والنصارى في الأندلس:

يبدو أن الأعجمي (Ramance) كانت واسعة الانتشار بين أهل الأندلس في القرون الثلاثة الأولى التي أعقبتْ افتتاحَ الأندلس، ومن الطبيعي أن تكون لغة التخاطب بين النصارى المستعربين، وكان عددهم في تناقص. فابن حزم الأندلسي (ت 456/ 1064) يذكر دارَ بلي الذين استوطنوا جهةً عرفتْ باسمهم شمالي قرطبة في فحص البلوط، ويُبدي استغرابه لأن «رجالهم ونساءهم لا يتكلمون اللاتينية (Latin) بل العربية»[25]. وقبل ابن حزم بقرن، يورد الخُشني ثلاث حكايات عن قضاة في قرطبة كانوا يُلمون بالأعجمية، يقول الخُشني إن القاضي سعيد بن سليمان الغافقي «قضى يوماً في المسجد إلى أن مضى صدر النهار، ثم قام منصرفاً إلى داره. فلما همَّ بدخول الدار، فإذا بوالد نصر الفتى [حاجب الأمير عبد الرحمن الثاني] مُقبلاً، وكان أعجميَّ اللسان، فصاح على البُعد بالعجميّة: كلِّموا القاضي يثبتْ علَّي أكلِّمه، فقال القاضي: قولوا له بالعجمية إن القاضي قد أدركه الملالةُ والسآمة من طول الجلوس للقضاء، فإذا جلس بالعشيّ في المسجد للنظر بين الناس تعود إليه لينظر في حاجتك أن شاء اللّه. ثم دخل القاضي داره ولم يقف عليه»[26]

في منتصف القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي ظهرتْ بين المستعربين في قرطبة جماعةٌ من غُلاة النصارى قوامُها قساوسةٌ ورهبانٌ وراهبات أخذت ـ دون أي سبب أو مبرِّر ـ في النيل من النبي ﷺ ومن الدين الإسلامي، مستهدفةً «الاستشهاد»، مع أن المستعربين كانوا يَحْظَوْن بحرية العبادة وممارسة ديانتهم، إن معظمَ معلوماتنا عن «شهداء قرطبة» هؤلاء مستمدةٌ من مصادرَ لاتينيةٍ مسيحية. والإشارةُ الوحيدةُ في مصدرٍ عربي إلى هذه الحركة المتطرفة الغريبة ترد في كتاب (قضاة قرطبة) للخشني حيث يحكي قصة أحد هؤلاء الغُلاة «المستقتلين لأنفسهم» فقد مَثُل أمام القاضي أسلم بن عبد العزيز الذي وبخه قائلاً: «ويلك، من أغراك بنفسك أن تقتلها بلا ذنب؟ فقال القاضي: وتتوهّم

---

(25) ابن حزم الأندلسي، علي: جَمهرة أنساب العرب، القاهرة، 1962، ص 443.

(26) الخشني، ص 64.

إنك إذا قتلتني أني أنا المقتول، فقال له القاضي: ومن المقتول؟ فقال له: شَبَهي يلقى على جسد من الأجساد فتقتله». فأمر القاضي بجلده «فلما أخذته السياط جعل يقلق ويصيح، فقال له أسلم: في ظَهْر من تقع هذه السياط؟ فقال: في ظهري. قال له أسلم: وكذلك السيفُ في عنقك تقع، فلا تتوهَّمْ غير ذلك»[27].

القضاء والتدريس في المساجد:

منذ ظهور الإسلام دأب القضاة على عقد الجلسات لإصدار أحكامهم في المساجد، التي كانت كذلك أماكن للتدريس. وتفيد كتبُ التراجم الأندلسية بأن القضاة كانوا ينظرون في القضايا في المساجد، وكذلك في منازلهم. يترجم الخُشَني لأحد قضاة قرطبة فيقول إنه كان يُصدر أحكامه في مسجدٍ بالقرب من منزله[28]. ويترجم ابنُ الأبار لقاضٍ آخر كان «أحياناً يجلس في منزله يُصدر أحكامه، بينما كانت جاريتُه تنسج في ركنٍ من المنزل»[29].

كما كانت المساجد كذلك مراكز للعلم، فقد ذُكر عن قاضي الجماعة محمد بن أحمد التُجيبي أنه كان له مكانٌ مخصصٌ بالمسجد الجامع بقرطبة حيث كان يُلقي دروسه[30]. وكان أستاذٌ للرياضيات يلقي دروسه على تلاميذه في جامع بلنسية[31]. وكان لعالمٍ من مدينة ألمرية كرسيٌّ بالجامع يجلس عليه ويُلقي دروسه[32].

ويُذكَرُ عن أحد الفقهاء بأنه كان يدرِّس القرآن الكريم في حانوته قرب المسجد الجامع بقرطبة[33]. وكان لفقيهٍ ـ وهو طبيبٌ كذلك ـ دكانٌ في إشبيلية

---

(27) نفسه، ص 108.

(28) نفسه، ص 70.

(29) ابن الأبار، ص 130.

(30) ابن بشكوال، ص 550.

(31) ابن الأبار، ص 85.

(32) نفسه، ص 867.

(33) ابن بشكوال، ص 89.

يلتقي فيه الجلّةُ من طلبة العلم لمناظرته، إذ كان حجةً في الدراسات القرآنية وعلم الحديث[34].

ولما وجّه أحدُ القضاة سؤالاً حول ارتداء العمائم، أجابه يحيى بن يحيى اللَّيْثي - من كبار فقهاء المالكية بالأندلس - بأن العمائم هي غطاء الرأس لأهل المشرق[35]. وبعد ذلك بأربعة قرون، ذكر ابن الخطيب أن العمائم قلّما كان يرتديها أهلُ غرناطة حيث اقتصر ارتداؤها على القضاة والعلماء والشيوخ والجند العربي، ويعني بذلك الجند الأندلسي[36].

في مجال العقاقير الطبية:

في الترجمة للأديب وعالم النبات أبي الحسن علي بن عبد الله الإشبيلي يقول ابنُ عبد الملك المراكشي إن أبا الحسن أعدَّ شرحاً لكتاب النباتي اليوناني من القرن الأول الميلادي دياسقوريدس (Dioscorides) أفاد به، وضَبط كثيراً من أسماء الأدوية المذكورة فيه «تلقّاها من مملوكته آنة القريقية [اليونانية]، وكانت وقعتْ إليه من سبي سرقوسة صقلية، وكانت أمها قابلةً عارفةً للحشائش والأدوية»[37].

إن كتاب دياسقوريدس هذا كان قد أهداه للخليفة الناصر لدين الله سنة 337/ 949 صاحبُ القسطنطينية أرمانيوس، وكان الكتاب مكتوباً بالإغريقي، ولم يكن بقرطبة من نصارى الأندلس من يقرأ اللسان الإغريقي، الذي هو اليوناني القديم. فلما جاوب الناصرُ أرمانيوس، سأله أن يبعث إليه برجلٍ يتكلم بالإغريقي واللطيني ليعلّم له عبيداً يكونون مترجمين، فبعث أرمانيوس إلى الناصر براهب اسمه نقولا، فوصل إلى قرطبة سنة 340 [1 - 952 م]»[38].

---

(34) ابن عبد الملك المراكشي، 6/ ص 443.

(35) الخشني، ص 36.

(36) ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة، القاهرة 1973، 1/ ص 136.

(37) ابن عبد الملك المراكشي، 5/ 1، ص 239.

(38) ابن أبي أصيبعة، أحمد: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، بيروت 1965، ص 4 - 495.

ومما يُذكر أن مدينة سرقوسة البيزنطية على ساحل صقلية الشرقي سقطتْ في أيدي المسلمين في صيف عام 264/ 878 بعد مقاومة طويلة، ووقع كثير من أهلها في الأسر. فهل كانت آنة القريقية من بين هؤلاء الأسرى؟ فإذا كان الأمر كذلك، فإن الأندلسيَّ أبا الحسن صاحبَ الترجمة قام بنفسه بشرح كتاب دياسقوريدس (Materia Mediea) وضبطِ مفرداته قبل سبعين عاماً من عهد الخليفة الناصر.

اشتقاق ألقابِ وأسماءِ أماكن:

تشتملُ كتبُ التراجم على معلومات مفيدة عن اشتقاق بعض الألقاب وأسماء الأماكن. فمدرسة المحدِّث علي الشارِّي (ت 649/ 1251) وخزانة الكتب الشهيرة الملحقة بها أوقفهما الشيخ علي بن محمد الغافقي المعروف بالشارِّي، نسبةً إلى شارَّة (Sierra) فلين، وهو معقل شمالي مُرسية مسقط رأس الغافقي[39].

والشاعر إدريس بن اليمان يُعرف لدى البعض باليابسي (نسبة إلى جزيرة يابسة (Ibiza)، إحدى الجزائر الشرقية/ جزر البليار)، كما يُعرف لدى البعض الآخر بالشبيني، نسبة إلى الشبين ـ شجر الصنوبر ـ وهو الشجر الغالب على أشجار بلده يابسة[40].

ويترجم المراكشي لعالم العربية الشهير من القرن السابع/ الثالث عشر أبي الحسن علي الشلوبيني فيقول إنه كان متقدماً في العربية، وكبير أساتيذها بإشبيلية. «سُئل عن هذه النسبة [الشلوبيني]: أهي إلى شلوبين الذي بلسان روم الأندلس «الأشقر الأزرق»، أو هل الاشتقاق من شلوبانية (Salabrena)، المدينة على ساحل غرناطة؟ فأجاب: كان أبي أشقر وذا عينين زرقاوين»[41].

وتحدَّث أبو محمد عبد الله الرشاطي في كتابه (اقتباس الأنوار) عن

---

(39) ابن الزبير، ص 149.

(40) الضبي، ص 222.

(41) ابن عبد الملك المراكشي، 5/2، ص 461.

أصل لقبه فقال: «هذه نسبتنا التي اشتهرنا بها، وقد كنتُ أظنُّ أنها نسبة إلى موضع أو بلد، فسألتُ عن ذلك أبي رحمه الله فقال: هذه نسبةٌ قد شُهرنا بها نحن وآباؤنا، ولا أعلم لها أصلاً. فسألتُ عن ذلك أسماءَ عمَّةَ أبي رحمها الله، فقالت: إن أحدَ أجدادنا كانت به في جسمه شامة كبيرة هي التي تُعرف بالوردة، ويسمِّيها العجم رُشِتَّه (rosetta)، وكانت له في صغره خادم عجمية تدخُنه وتكفلُه، فكانت عندما تخدِّعه وتلاعبه تقول له: رُشِطالُّه (Rosetallo)، وكثر ذلك منها حتى غلَبَ عليه، وقيل: «رُشاطي». غير أن ابن عبد الملك المراكشي يشك في صحة تفسير الاشتقاق «لأني لم أتحقَّق كونها [أسماء] من أهل العلم»[42].

(42) نفسه، 8/2، ص 479.